

الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم

وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله، وأنتم في مهل بادروا الأجل، ولا يغرنكم الأمل، فكأنني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي، بجسده البالي، فهو في التراب عفير^(١)، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحداً يخطيء إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء، ما خلا زياداً فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً.

وخطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوفا الوفا^(٢)، فإن وراءكم طالباً حثيثاً وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان، ألا وإن وراء ذلك اليوم، يوماً أشد منه، يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، ﴿تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٣) ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه، فيه نار تتسعر، حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة. قال فبكى المسلمون بكاء شديداً. ثم قال وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب: الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام.

قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع، فاخترط من سيفه شبراً، ثم قال: أمير المؤمنين هذا. وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبي فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

(١) عفير: ملطخ بالتراب.

(٢) الوفا: السرعة والبدار.

(٣) سورة: الحج، الآية: ٢.

(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٣.

فصل: في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعي شاردا الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يوماً، فلم ينطق بالشعر ثم إن بني جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام^(١) الشعر فذل له ما استعصب عليه فقال له قومه: والله لنخنُ بإطلاق لسان شاعرنا أسراً منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء، وليلى، فما ظنك بالرجال. وقال الخليل: الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤوا، جائر لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده. وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرضت القريض^(٢)؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال لا. فكتب إلى عبد الله. أبا زياد بارك الله لك في ابنك، فأروه الشعر. فقد وجدته كاملاً، وإني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقي مساوئها. وتعلموا الأنساب، فرب رَجِمَ مجهولة قد وصفت بعرفان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتني إلا قول^(٣).

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي^(٤)

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، وكان يعمل الشعر على السنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالا جزيلاً، على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فليل له في ذلك. فقال: خير ما لك ما وقيت به عرضك. وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة، قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله، فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً. ولم ينطق به موزوناً. فقال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشهد أنك رسول الله حقاً. وتلا قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾^(٥).

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأرس وشجاعها:

ما المأل والأخلاق إلا مُعارةٌ فما اسطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتها قريدة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لَعَمْرُكَ ما الأيامُ إلا معارةٌ فما اسطعت من معروفها فتزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب^(٦):

(١) رام: أراد وطلب.

(٢) القريض: من أسماء الشعر.

(٣) الشعر لعمر بن الإطابة.

(٤) رواية البيت في كتب الأدب: وقولي كلما جشأت...

(٥) سورة: يس، الآية: ٦٩.

(٦) لعله عبدة بن الطبيب.

فما كان قيس هلكه هلك واحد
أخذه من قول امرئ القيس:

ولكنه بنيان قوم تهذما
فلو أنها نفسي تموت شريتها
ويقال: من سرق شيئاً واسترقه فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة
قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يثن هممه
أخذه من قول الحطيئة، ولم يغير سوى الروي:

حصان^(١) عليها عقد دُرٌّ يزيناها
إذا ما أراد الغزو لم يثن هممه
وجري على سعة تجره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قوم
من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

ولكن حمد المرء غير مخلد
وقد قال الشماخ:

وأمر ترجى النفس ليس بنافع
وهو مأخوذ من قول الآخر:

وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها
وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نَور^(٢) نَفْحَتِهِ الصَّبَا
أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضاً في سواد كأنه

ومن سقطات الشعراء ما قيل: أن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط. روي أنه لقي محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة ماتتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية. فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

(١) حصان: عفيفة.

(٢) النور: الزهر الأبيض للشجر.

(٣) الشطر الأول فيه خلل بالنظم أو تصحيف بالكتابة.

ألا يا عتبة الساعة
لقلت كثيراً ولكني أقول:
أموت الساعة الساعة

ابن عبد الحميد يوم توفى
ما دزى نعشهُ ولا حاملوه
هَدَّ ركناً ما كان بالمهدودِ
فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم. فكاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً.

وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظم سليمى حبتي
وإذا أدنيت منها بصلاً
فصب السكر لا عظم الجمل
هذا مع قوله:

إذا قامت لمشيتهما تثنت
ومع قوله في الفخر:

كان مشاز النقع^(١) فوق رؤوسنا
ومع قوله أيضاً:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى^(٢)
ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشاربُهُ

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور، وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني، وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم
وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وغير شيء معناه المعدوم، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله ويكاد أن تمجه^(٣) الأسماع قوله:

تقلقت^(٤) بالهم الذي قلقل الحشا
وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:
فبرئت حيثئذٍ من الإسلام
إن كان مثلك كان، أو هو كائن

(١) النقع: غبار المعركة.

(٢) القذى: عكر الماء وعدم صفائه.

(٣) مجته الأسماع: أنفته وعافته.

(٤) القلقلة: ضد السكون.

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتهما يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع راوية جرير، وراوية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نصيب، فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر، فحكموها السيدة سكينه بنت الحسين، رضي الله تعالى عنهما، بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم. فقالت لراوية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرتك^(١) صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق، قبح الله صاحبك وقبح شعره، فهلاً قال فادخلي بسلام. ثم قالت لراوية كثير: أليس صاحبك الذي يقول:

يقر بعيني ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح أحب صاحبك أن ينكح، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلايها لِمَا فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإن أمّث فواحزني مَنْ ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا مَنْ يتعشّقها بعده، قبحه الله وقبح شعره. هلاً قال:

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإن أمّث فلا صلحت دعد لذي خلّة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلاً إذا نجم الثريا حلّقا

باتا بأنعم ليلة وألذّها حتى إذا وضح الصبح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلاً قال تعانقا. فلم تثن على واحد منهم، وأحجم روايتهم عن جوابها، رضي الله عنها.

وروى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن العزيز، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول، حتى قدم عدي بن أرطاة عليه، وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

(١) الطروق: الإتيان ليلاً.

يا أيها الرجل المزجي^(١) مطيئة
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقية
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة
هذا زمانك إنني قد خلا زمني
أنني لدى الباب كالمشدود في قرن
قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فقال: نعم يا أبا عبد الله. فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألستهم مسمومة، وسهامهم صائبة. فقال عمر رضي الله عنه: ما لي وللشعراء. فقال يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم. قال: صدقت فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي، قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتني في يوم تدنو مني
وليت طهوري كان ريقك كله
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي
شممت الذي ما بين عينيك والقم
وليت حنوطي^(٢) من مشاشك^(٣) والدم
هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: جميل بن معمر العذري، قال أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت
فما أنا في طول الحياة براغب
أظل نهاري لا أراها وتلتقي
يوافي لدى الموت ضريحي ضريحها
إذا قيل قد سوى عليها صفيحها^(٤)
مع الليل روعي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم
ويسمعون كما سمعت حديثها
يكون من حذر الفراق فعودا
خروا لعزة ركعاً وسجودا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت، قال الأصوص الأنصاري، قال أبعده الله، والله لا دخل عليّ أبداً، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيدها
يفر مني بها وأبعده

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلياني من ثمانين قامة
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
كما انقضَّ بازُّ لئن الريش كاسرة
أحيي، فيرجى أم قتيلاً نحايزة

(١) أزجيت المطية: دُفعت وسُيرت.

(٢) الحنوط: طيب للأموات.

(٣) المشاش: العظم لا منح فيه.

(٤) الصفيح: أحجار ترصف فوق الدفين.

فقلت ارفعوا الأحراس لا يفتنوا بنا ووليت في أعقاب ليلٍ أبادة
والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القاتل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ عمري ولستُ بآكلٍ لحمِ الأضاحي
ولستُ بزاجرٍ عيساً بكوراً إلى أطلالِ مكةَ بالنجاح
ولستُ بقائمٍ كالعبد يدعو قُيِّلَ الصبحَ حيَّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً^(١) وأسجدُ عند منبج الصباح

أبعده الله عني، فوالله لا دخل عليّ أبداً، ولا وطئ لي بساطاً، وهو كافر. فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القاتل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقتَ الزيارة فارجمي بسلام
فإن كان ولا بد فهذا، فأذن له. قال عدي بن أرطاة: فخرجت فقلت: ادخلُ يا جرير. فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاره حتى ارعوا^(٢) وأقام ميل المائل
إنني لأرجو منه نفعاً عاجلاً والنفس مولعة بحبِّ العاجل
والله أنزلَ في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه، قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعناء أرملة ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوت والنظر
ممن بعدلك يكفي فقد والده كالفرخ في العشِّ لم يدرج ولم يطير
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بلغت من خبري
إننا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطرِ
إن الخلافة جاءتْه على قدرٍ كما أتى ربَّه موسى على قدرِ
هذي الأراملُ قد قضيت حاجتها^(٣) فمن حاجةٍ هذا الأرملة الذكرِ
الخيرُ ما دُمت حياً لا يفارقنا بوركتَ يا عمر الخيراتِ من عمرِ

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال والله يا أمير المؤمنين إنها لأحبُّ مالي اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: وما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء وإنني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

(١) الشَّمول: من أسماء الخمر.

(٢) أرعوى: ارتدع.

(٣) حاجتها: يستقيم الوزن بإبدالها بـ (حواجها).

رأيت رقي الجن لا يستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقياً^(١)

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف: الشريف من عُدَّتْ سقّطاته وقَلَّتْ عثراته: وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو. وكان الأحنف بن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل، وقد عُدَّتْ له سقّطة. وهو أن عمرو بن الأهتم دسَّ إليه رجلاً يسفهه، فقال: يا أبا بحر، ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم. فرجع إليه ثانياً ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة، ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجاً^(٢).

وقال سعيد بن المسيب: ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد.

وقال قتادة: ما نسيت شيئاً قط. ثم قال: يا غلام ناولني نعلي، قال: النعل في رجلك.

وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودعاتهم وقد عدت له سقّطات، منها أن الحادي^(٣) حدا به يوماً فقال:

إنني عليك أيها النجسي أكرم من يمشي به المطي

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان، وأخوه فقال: والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولي الخلافة قال: الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام. قال النابغة: أي الرجال المهذب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أي لم تؤثر فيه شياطين الشعر.

(٢) سلاجاً: أكولاً.

(٣) الحادي: المنشد الذي يقود الإبل.